

همنفواي والعنف

بقلم منجم الطائي



ارنست همنفواي

هي مكتظة بمعاني حشية يخرجها هؤلاء السى الواقع بسلسلة من افعالهم الصارمة ، فقد كان همنفواي من دعاة الفعل ضد التجريد-دوما ، يقول في روائي افريقيا الخضر « فالعمل هو الشيء الوحيد ، لا شيء سواه الذي يجعلك تشعر بالعافية دوما » ، ويندر ان نجد في كتاباته اثرا لتيار العواصف الذاتية او التهويمات الفلسفية الجوفاء . ولكن الفعل عنده ليس بالمفهوم اللارائعي كما ذهب اليه بعض النقاد وراوا فيه ابنا بارا لفلسفة المدنية الاميركية القائمة (1) بل يتسم الفعل عنده بتناسق خطير مع الاحساس الباطني بسمو الحياة وعلوها وان صدق وقيمة افعال ابطاله لا تتوقف على مدى نجاحها المادي بل

(1) من الطريف ان اشهر كاتب امريكي ليس اميركا في كتاباته ورغم ان ابطال قصصه امريكيون الا انهم يمتازون بالتمرد على الحياة الاميركية الزائفة وقيمها الخادعة ولا يشبهون مثلا ابطال فيتزجيرالد وستكلسر لويس الذين عاش بعضهم في اوربا ايضا ، ثم ان شخصيات همنفواي الثانوية وامكان قصصه الطويلة جميعا تنتسب الى غير الولايات المتحدة وحتى في قصصه القصيرة فهم من الذين يعيشون على هامش الحياة الاميركية (كالمهريين والهنود الحمر والعيادين الصغار ..)

ان مهمة الفنان هي النفاذ من تحت اثقال الجمود والخدر الاجتماعي والرتابة التي تغمر عوالمنا من كل جانب الى الاعماق لاقتطاع بعض شرائح الخصب والتوتر والعنف التي تؤلف نسيج الحياة الاوحد ، وهي مهمة اشق واسمى بكثير من مجرد رصف العبارات الوصفية للظواهر الفردية والاجتماعية الساذجة والمفهومة سلفا ، وقد كان همنفواي واحدا من اعظم الكتاب الذين ادوا تلك المهمة بجدارة .

والحياة عند همنفواي حقيقة كونية وبسيطة فهي مؤلفة من « الخبز والخمر والتجربة والنساء والليالي والصباح الباكر والكلاب ورائحة العشب » ولشموها وخصبها هذين فهي ضد كل مذهب او عقيدة تدعي احتواء الحياة بمجموعها وتجميد دقائقها السيالة في اخايد المذهب المتعرجة ، لذا كان ابطال همنفواي لا يدينون باية ديانة او مذهب معين بل يندفعون في رحاب الحياة ويجابهون اقصى مواقفها طالبا للحرية وللحياة نفسها وبحثا عن السعادة فحسب ، ومن اجل هذا فهم بعيدون ايضا عن كل تعصب وحقد ، فرغم ان روبرت (بطل لمن تدق الاجراس) يحارب مع الجبهة الجمهورية الاسبانية فهو لا يدين باي مذهب من مذاهبها السياسية ولا يميل الى التعابير الكلاشيسية الوطنية ويكره الروحية الدينية التي بعثت في نفوس ابناء الشعب الاسباني ايام الثورة وفي نفوس افراد بعض الاحزاب خاصة باسما جديدة ودفعتهم الى ارتكاب جرائم فظيعة لا تقل بشاعة عن جرائم محاكم التفتيش ، وكذلك هو هنري (بطل وداع للسلاح) عندما يقاتل في الحرب العالمية الاولى مع الايطاليين ضد النمساويين .

ورغم ان الكولونيل كانتويل يقاتل في الحرب العالمية الثانية بجانب القوات الراسمالية المتحالفة فهو يحب رومل والالمان وانسيلمو الجمهوري المثالي في (من تدق الاجراس) لا يحقد على الفاشيين لانهم فقراء مثله وان « الاوامر » وحدها هي التي تفصل بينه وبينهم في الجبهة ولا يريد القتل لهم لانه يبذر الكراهية في نفوس ابنائهم فيما بعد ولا السجن لانه يخلق الحقد بل يريد تعليمهم واصلاحهم بالعمل ، والشيخ في اقصوصة « الشيخ عند الجسر » يتلقى اذى الفاشيين وليس له اي مذهب سياسي معين .

والحرية والحياة والسعادة التي ينشدها ابطال همنفواي ليست الفاظا تجريدية خالية من المعنى ، بل

أنها كثيراً ما تنتهي إلى الفشل الذريع ومع ذلك فهي تبعث على الإعجاب والتقدير في نفوس القراء .

ومثل هذه النظرة الواسعة السى الحياة تخرج بالعرف من معناه التقليدي الزائف في أذهان الناس فهو لا يعني غير شدة الشعور بالحياة وأزدياد النهم الى جعلها أكثر فورة وحبورا ، يقول كانتويل : فلنأخذ ما دمنا لا نمك غير حياة واحدة وحيدة (في عبر النهر ونحو الأشجار) ويقول الساقى في نفس الرواية « لان يحيا المرء يوما واحدا مثل اسد من الاسود خير له ان يحيا مائة عام مثل خروف من الخراف » (٢) ، وميبببولوس في « والشمس تشرق ثانية » « ان في امكاني ان اتمتع جيدا بكل شيء لانني عشت حياتي على نحو عفيف حصب » .

ونجد نموذجا كاملا للحياة الخصبه التي ارادها همغواي في (الشمس تشرق ثانية) حيث يمتزج السكر .. بالنشوة الجنسية .. بالموسيقى .. بالطبيعة .. بمتعة مشاهدة مصارعة الثيران او ممارستها فيبلغ المرء ذرى التوتر الحسى وتمثل احتفالات بمباوثة من تلك القصة والتي وضعها الكاتب باسهاب رجعة البى طقوس وثنية كما قال عدد من النقاد ونقول انها اقرب مبا تكون الى طقوس اعياد ديونيزوس وان شخصية برت اشلي في القصة - وتشبه شخصية الليدي تشاترلي خير تجسيد للبهيمية الطليقة والعودة الى الحب الاول .

ورغم تمجيد همغواي للقوة الجسدية (كما في الشيخ والبحر ، وعند هاري مورجان في التملك وعدم التملك) فقد كان كارها للتسلط البيروقراطي ، والكولونيل كانتويل يسخر من ساسة وقادة الحرب الاسبانية الجمهوريين كما قال كانتويل « ان الجيش أكبر المشروعات التجارية في العالم » ولم نجد جيشا يصدق عليه هذا القول كجيش الولايات المتحدة الذي يعتبر أكبر سوق رائجة لترستات الاسلحة فيها ، وثمة كوبي ثائر في رواية (التملك وعدم التملك) يغضب لان الاستعمار الاميركي (كان) يفرض وجود جيش جرار في بلاده الصغيرة الفقيرة ليصبح اداة للبطش والارهاب بالشعب .

الا ان اهم مظاهر العنف الحيوي التي اهتم بها همغواي في قصصه هي مصارعة الثيران وصيد الوحوش الكاسرة وقد وضع في كل منهما كتابا من نواحيهما الفنية ايضا ووجد فيهما التطبيق العملي لشعاره « الحياة بالقرب من الموت » .

والمصارعة الاسبانية هي لعبة الدم والموت الرهيبة وفيها يمثل الثور قسوة الحياة البدائية وهاجها اللامحدود ويرمز المصارع الى التحدي والمقاومة الانسانية لتلك الحياة وان مشاهدة الصراع بينهما تثير في النفوس اشد انواع الاحاسيس عنفا وخاصة في اللحظات التي يخيم فيها الموت على الحلبة فيقف مصير انسان شجاع على قرن

(٢) وبرأنا ان الاسود الافريقية التي يحلم بها بطل الشيخ والبحر

هي رمز للقوة .

تور وان موقف مصارع الثيران في ادب همغواي يشبه موقف اللاعب على الجبال الذي مجده نيتشه ورأى فيه افضل من ان يتمتع بالحياة عملا بحكمته « عش في خطر » ويقول يعقوب (في الشمس تشرق ثانية) : لا يعيش اي انسان حياته كلها فيما عدا مصارعي الثيران .

وقد مارس همغواي اصطياد الوحوش في فترات متعددة من حياته وفي اللحظات التي يقابل فيها الانسان وحشا كاسرا كالاسد او الكركدن او يتفنن في اصطياد اي حيوان ماكر اخر تتصاعد الدماء الى راسه ويشد به التوتر النفسي فيشعر بمتعة غير اعتيادية وقد يقف في لحظة قصيرة على حافة الموت وعندئذ تندفق « ينابيع قواه الباطنية » (٣) . وقد اوما همغواي الى فشل ماكومبر (في حياة فرانسز ماكومبر القصيرة السعيدة) في علاقته الزوجية وموته المعنوي بفشله في اصطياد الاسد وهربه منه امام زوجته .

لا زال الموت الكوة الرئيسية ان لم تكن الوحيدة التي يطل فيها الانسان على عالم المتفانيزيكا الغريب وهو التحدي الوحيد لكلية الحياة . ومن فواجعه انه قد يأتي في اية هيئة وقد يحويه اي شيء ، قد يجيء كما يقول همغواي من الماء غير المغلي او من ناموسية لم تنصب او

(٣) من حوار الفيلم السينمائي لفصحة ثلوج كليمانجارو وهو غسير موجود في اصل القصة .

بعد دراسات وابحاث استغرقت عدة سنوات ، تمكن علماء الكيمياء

من اكتشاف :

DUO SUISSE

الدواء العجيب الذي يزيل قشرة الرأس والحكاك

وبعض تساقط الشعر

مختبرات ديو سويس - سويسرا

الوكلاء العامون والوزعمون

مبممة - شارع البرلمان ، بيروت

من القرقعات الصغيرة التي تسبق انطلاقة عتاد السلاح الاوتوماتيكي فيبعث على اليقين بلا جدوى الحياة وتفاهتها وييذر اليأس في كل ساعات اثارنا حتى الهائلة السعيدة منها .

ومن الغريب ان اكثر ابطال همنغواي يغامرون في الحياة وهم يدركون انهم سائرون نحو الموت : فكانتويل مصاب في قلبه وهاري بطل تلوج كليمانجارو بالفنغرينا ومثلما تقرأ بيلار في كف روبرت دنو اجله (في لمن تفرع الاجراس) تنبأ فيرغسون (في وداع للسلاح) ان يكون مصير علاقة هنري وكاترين من اول لقاء عاطفي لهما الخصام او الموت ! ولا يعني ذلك بنظرنا غير ان الشعور برهبة الموت في كل لحظة من لحظات الحياة والتوتر الذي يصيب المرء من جراء التفكير فيه يتناسب طرديا في شدته مع التفتح والاقبال على متع الحياة وممارستها بعنف .

الا ان هؤلاء الابطال لا يرهبون الموت رغم عدم نسيانهم اياه ، ويقول كانتويل (مثلا) ان في دنو الحياة من الموت يستغرق المرء في نشوة روحية ! فقد وجد همنغواي ان الموت هو الحافز الاعظم لنا لكي نعلو بحيواتنا وكاننا بذلك نحرز النصر عليه ، فالبطولة هي الجواب الوحيد على الموت .

ويوحى لنا هذا الحوار الغريب بين روبرت وماريا

في (لمن تدق الاجراس) بوجود علاقة خفية بين العملية الجنسية والموت :

هو - حتى انني لاود ان اموت ونحن نمارس الحب .
هي - انني اموت في كل مرة او لا تموت انت ؟
هو - لا ، ولكنني اصبح قريبا من الموت . او لم
تشعري بالارض تتحرك ؟
هي - اجل شعرت بها عندما مت !

وحسب علمنا فان احدا من المفكرين المهتمين بقضية الموت لم يتناول هذه العلاقة السرية (العرب منهم خاصة كالكتورين عبد الرحمن بدوي و زكريا ابراهيم ورينيه حبشي) وقد يرى البعض ان لحظات « الذوبان » الجنسي قريبة من العدم الذي يرتبط دوما في الذهن البشري بالموت ، ولعل همنغواي قد وجد في النشوة الجنسية احدى القمم الشاهقة التي تعلو اليها الحياة وتؤلف برزخا يكاد يلتقي فيه الموت بالحياة كما في لحظات تطاير المصارع الاسباني على قرني ثور هائج او مواجهة صياد لوحش مفترس ، وعندما يداعب كانتويل كنوز جسد حبيبته يلقي نفسه امام « السر القدسي الوحيد الذي كان يؤمن به بالاضافة الى بسالة الانسان المرضية » (من ترجمة الاستاذ البعلبكي) .

مزاحم الطائي

الاعظمية (العراق)

صدر حديثا في

سلسلة القصص العالمية

والحلقة الثانية

الحلقة الاولى

قَصِيرُ كَامُو

قَصِيرُ سَارْتَر

في كتاب واحد يضم : الغريب - الزوجة الخائنة - الجاحد - اليكم - الضيف - جوناثان - الحجر الذي ينبت

في كتاب واحد يضم : الجدار ، الغرفة ، ايروسترات - صميمية - صداقة عجيبة

ترجمة

عايدة مطر جي ادريس

تقلا من الفرنسية

الدكتور سبيل ادريس

الثن ٤ ليرات لبنانية

الثن ٣٥٠ ق.ل

منشورات دار الآداب